

الإلياذة الإسلامية

لأحمد محرم

١

كلنا نعرف أن الشعر العربي شعر غنائى ، فهو قصائد قصيرة مهما طالت لا تتجاوز مائة بيت ، وإن طالت فلا تطول إلى أكثر من مائتين أو ثلاث ، كما هو الشأن عند ابن الرومي . وهو يُعَدُّ شذوذاً على ذوق العرب ، لأنهم لا يعرفون كل هذا الطول لقصيدتهم ، بل إن القصيدة قد تقصر عندهم حتى تصل إلى سبعة أبيات ، وقد تقصر أكثر من ذلك ، فتصبح مقطوعة ، وما أكثر مقطوعاتهم ومنظوماتهم القصيرة .

وهذا القصر في القصيدة العربية ليس خاصاً بها دون قصائد الأمم الأخرى ، بل هو سمة عامة ، ولكن في أى شعر؟ في هذا الشعر الذى يتحدث فيه الشاعر عن عواطفه وإحساساته ومشاعره ، والأمم الغربية كلها تعرف هذا اللون من الشعر الذى يتغنى فيه الشاعر خواطره الذاتية من حب وغير حب .

وتعرف هذه الأمم بجانب ذلك لونا من الشعر التعليمى ، ونجد له أمثلة كثيرة فى لغتنا ، كما تعرف لونيْن آخرين هما الشعر القصصى والشعر التمثيلى ، ولم يعرف العرب اللون أو النوع الأخير لسبب بسيط ، وهو أنه لم يكن عندهم مسرح ، ولا عرفوا التمثيل ولا الحوار الطويل الذى يسوقه أشخاص مختلفون فى عمل أدبى واحد .

والعرب كذلك لم يعرفوا الشعر القصصى الذى عرفه الغربيون ، لأنهم ذاتيون فى شعرهم ، لا ينفكون عن بواطنهم ودخائلهم ، ولا يتصلون بمحيط غير محيط أنفسهم . أما ذلك المحيط الواسع

للظروف والأحداث من حياة أمتهم وما التحمت فيه من حروب، وما اضطرب في هذه الحروب من عواطف وأفكار، وما تحدث به معاصروها من سير بطولة وأبطال، فإن ذلك كله لا يعنى شاعرها ولا يهمه، إنما يهمه أن يصف ما يحسه، وأن يتخفى بمشاعره في سرعة وعجلة، وبدون ريثٍ ولا أناة.

فالشاعر العربي لا يعرف النظرة الشاملة لحقائق مجتمعه ونفوس الناس من حوله، ولا لحقائق التاريخ وما يصوره من هذه الدائرة الواسعة من حياة أمته. ومن هنا لم يفكر لا في شعر تمثيلي، ولا في شعر قصصى، لأن ذلك يؤدي به إلى عرض الحقائق الكلية، وهو لا يعرف سوى الحقائق الجزئية ولا يكاد يُلم بحقيقة كلية حتى يحولها إلى حقيقة تجريدية في مثل أو حكمة. فلم يتعدَّ دائرته الشخصية المقفلة، ولا دفعته أمواج خارجية بعيداً عنها.

وهذا من شأنه أن يعزله إلى نفسه، ويفصله عن كل ما يجرى حوله من تاريخ وغير تاريخ، وهو إن اتصل به لم ينفذ فيه نفوذاً عميقاً، بحيث يصل إلى أغواره، أو بحيث يقصر نفسه عليه، وينفخ في بوقه إلى نهايته. إنه لا يعرف إلا نفسه وذاته وحقيقته، وهو ينفخ بكل جهده في هذا البوق الكبير، غير مهتم بشيء سوى شخصه وأحاسيسه.

وكان من مظاهر ذلك عند شاعرنا أن نَفَسَه في شعره لا يطول، بينما الشاعر القصصى عند الأمم الأخرى يطول نفسه طويلاً مسرفاً، حتى تتجاوز قصيدته مئات الأبيات، بل حتى تتجاوز الألف والالفين والثلاثة، بل حتى تصبح آلافاً عشرة أو أكثر. وما خلق العربي ليكتب هذا العدد الضخم من الأبيات، أو قل إنه خلق ليعيش في إطار نفسه الداخلي المحدود، الذي لا ينفحه إلا بالأبيات القليلة والقصيدة القصيرة.

وليس بصحيح أن العرب لم ينظموا شعراً قصصياً لأنه لم تكن عندهم حرب كحرب طروادة تلك الحرب التي ألهمت هوميروس قصيدته الطويلتين :

الأوديسة والإلياذة ، وقد بلغت الأخيرة نحو ستة عشر ألفاً من أبيات الشعر القصصى صور فيها ما كان من أحداث في السنة الأخيرة من تلك الحرب . ليس بصحيح أن العرب يفقدون في تاريخهم حرباً هائلة كهذه الحرب ، فتمد كانت لهم قديماً حروبهم بينهم وبين الفرس كما في موقعة ذي قار ، وكانت لهم حروبهم الداخلية الرهيبة كما في حرب البسوس ، ثم كانت لهم حروبهم الإسلامية في الشرق والغرب ، وكان لهم فيها أبطال لا يقلون عن « أخيل وهكتور » بطلي إلياذة هوميروس فتكا وشجاعة .

إنما هو الشاعر العربي الذي لم يتعدَّ حدود نفسه ، ولم يشأ أن ينظم سوى أغانياته التي يعبر فيها عن لحظة له هيئته وأخرى حزينته . وقد تعرَّض بعض الشعراء لكتابة التاريخ أو فصل منه بالشعر ، على نحو ما هو معروف عن ابن عبد ربه في نظمه لحروب عبد الرحمن الناصر ، ولسان الدين بن الخطيب في نظمه للتاريخ حتى عصره شعرا ، وكثيرا ما نظمت سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وقصته إسرائه ومعراجه .

ولكن هذا كله ليس من الشعر القصصى في شيء ، وإنما هو أشبه ما يكون بنظم المتون ، إذ تحصى المعلومات التاريخية إحصاء ، على نحو ما يحصون في متون الشعر التعليمي قواعد العلوم ، فهم ينظمون الحوادث في أسلاك من الشعر ، ولا يضيفون روعة من خيال ولا تمشلا صحيحا لحقائق التاريخ وما اندجت فيه من متناقضات أو لمع على جبينها من بطولة وأبطال .

ومثل هذا النظم إنما يدخل في الشعر التعليمي ، ذلك الشعر الذي يسوق المعارف ويحشدتها في غير قصد إلى إثارة للخيال أو إثارة للشاعر ، فهو شعر يخاطب العقل وركن المعرفة الهادئة فيه ، ويستمد من الذاكرة لا أحلاما ، وإنما حقائق عارية لانبث أن تتحول أمام من يعرفها إلى ما يشبه الثروة المملة إذ لا تزيد على أنها سرْدٌ لوقائع معينة .

لم تعرف العربية إذن الشعر القصصى بمعناه الغربى ، وإنما عرفت ضرباً من نظم التاريخ تشبه أن تكون متوناً للحفظ والتسميع . وما زال هذا شأننا حتى اتصلنا بأوروبا وآدابها فى القرن الماضى ، واطلع شعراؤنا على الملاحم الكبيرة عند القوم ، فتمنوا لو حاكوها أو لو نقلوها إلى لغتهم .

ولم يلبث سليمان البستاني أن نقل إلياذة هوميروس إلى لغتنا شعراً ، وبذلك رأى شعراؤنا تحت أعينهم هذا اللون من الشعر القصصى ، ورأوا ما يجرى فيه من حروب وحوادث مثيرة تدور حول أبطال اليونان وطروادة . ومعروف أن الإلياذة نظمت من وزن واحد لم تخرج عنه ، وأن الأسطورة تجرى فى ثناياها ، وأن الآلهة كانت تتدخل فى الحرب ، فتارة تنصر اليونان وتارة تنصر طروادة .

ففيها خيال واسع وفيها حلم مشير ، وفيها حوادث خارقة ، وكل ذلك يعرض فى لغة نغمة . وقد حاول سليمان البستاني أن ينقل كل ذلك إلى العربية وأدى فيه جهداً مشكوراً ، وإن لم يلتزم فى عمله وزناً بعينه .

وما زال شعراؤنا يتطلعون إلى مجارة هذا العمل ومحاكاته ، حتى نهض أحمد محرم يحقق لهم الأمل المنشود ، فاختار حروب الرسول صلى الله عليه وسلم موضوعاً لإلياذته أو ملحمة الإسلام . وتحفظ دار الكتب المصرية بنسخة مصورة منها ، ونراه يقسمها فصولاً ، وكثيراً ما يقدم للفصل بقطعة نثرية يوضح فيها موضوع القصيدة التالية ، سواء اتصلت بغزوة أو بحادثة من حوادث السيرة الزكية وهو يفتتحها بقوله : .

املا الأرض يا محمد نورا . واغمر الناس حكمة والدهورا

حجبك الغيوب سرًّا تجلّي يكشف الحجب كلها والستورا
 غبَّ سيل الفساد في كل وادٍ فتدفَّق عليه حتى يغورا
 جئت ترمي عُبابه بعُبابٍ راح يطوى سيوله والبحورا
 ينقذ العالم الغريق ويحمي أمم الأرض أن تذوق الثورا
 زاخرٌ يشمل البسيطة مدًّا ويعُثم السبع الطباقي هديرا
 أنت معنى الوجود بل أنت سرُّ جهل الناس قبله إلا كسيرا
 أنت أنشأت للنفوس حياةً غيرت كل كائن تخيرا
 أنجب الدهر في ظلالك عصرا نابه الذكر في العصور شهيرا
 كيف تجزى جميل صنعك دنيا كنت بعثا لها وكنت نشورا
 ولدتك الكواكب الزُّهرُ فجرا هاشميَّ السَّنا وصبحا منيرا
 يصدع الغيب المجلل بالوحي الملكى ويكشف الديجورا
 منطق القدرة التي ترهق القا در عجزا والعبقريَّ قصورا
 خرت العربُ من مشارفها العدا ياتئو إلى هويها والحدورا
 أنكر الناس ربهم وتولوا يحسبون الحياة إفكا وزورا
 تلك أربابهم أتملك أن تنـ ففعل مثقال ذرة أو تضيرا
 مالدى اللات، أو دمنة، أو الع زى غناء لمن يقيس الأمورا
 جاء دين الهدى وهب رسول الله يحمى لواءه المنشورا

واستمر يتحدث في هذا الفصل عن جهاد الرسول وبلائه ، وكيف ضرب
 الكفر في نحره ضربة لم يقم بعدها أبدا ، يشد من أزره أصحابه وأنصاره .
 وتحدث عن قریش وأعداء الله ورسوله ، وكيف صدوا عن سبيله ، وما كان
 من إرسالهم عمه أبا طالب إليه ، وعرضه الملك والمال عليه ، فقال قوله
 المشهورة : « والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن

أترك هذا الأمر أو أموت دونه ما تركته . فهو صاحب رسالة كلفه إياها ربه ذو الجلال ، وأمره أن يبلغها الناس ، وهو صاعد بأمره ، حتى ينجر الوثنية في بلاده ، بل في العالم من حوله ، ويحطم أصنامها تحطيمًا .

ويعود المسلم بهذا كرتة ليشاهد صور الجهاد ، بل قل الكفاح بين الرسول وعشيرته ، وتتبعه صفوة منها ، ولكن تبقى الكثرة وتستخدِم ، وخاصة طغاتها ، كل أسلحتها ضده ، وتبلغ تباشير هذا النور المحمدي المدينة ، فيطلبه نفر منها ويعاهدوه أن يجاهدوا معه في سبيل دعوته وأن يموتوا من دونه ، فيهاجر إليهم . ويقص علينا محرم في فصل ثان هذه الهجرة ، وكيف استخفى بغار مع صاحبه أبي بكر ، وكيف عميت عنه عيون المشركين ، حتى إذا أمنهم تابع هجرته إلى أن نزل في ضاحية المدينة المسماة « قُبَاء » فرفع بها المسجد المبارك ، وصلى فيه الصلاة التي شرعها ربه ، والتي تشفى نفوس المسلمين وتغسل عنهم أوضار الحياة وشرورها كلها ألم بهم أذى أو مسهم ضر ، فهي بلسم جراحهم ، وهي ينبوع الدائم لسعادتهم . وينهض الرسول عليه السلام من قباء إلى المدينة ، فينشد محرم :

أَقْبِلْ فَمَلِكْ دِيَارٌ يَثْرَبُ تَقْبِلُ	يكفيك من أسواقها ماتحملُ
الْقَوْمُ مَذْفَارُكَ مَكَّةُ أَعِينُ	تَأْبَى الْكَرَى وَجَوَانِحُ تَمْلَلُ
يَتَطَلَّعُونَ إِلَى الْفَجَاجِ وَقَوْلِهِمْ	أَفْأَ يَطَالَعُنَا النَّبِيُّ الْمُرْسَلُ
أَقْبَلْتَ فِي بَيْضِ الشَّيَابِ مَبَارِكَا	يُرْجَى الْبَشَائِرُ وَجْهَكَ الْمَتَمَلِّلُ
خَفَّ الرِّجَالُ إِلَيْكَ يَهْتَفُ جَمْعُهُمْ	وَقُلُوبُهُمْ فَرَحًا أَخْفَ وَأَعْجَلُ
انْظُرْ بَنِي النَّجَارِ حَوْلَكَ مُعَكِّفَا	يَرِدُونَ نُورَكَ حِينَ فَاضَ الْمَنْهَلُ
لَمْ يُنْزَلْكَ عَلَى الْخُتُولَةِ وَحْدَهَا	كُلُّ الْمَوَاطِنِ لِلنَّبْوَةِ مَنْزِلُ
نَزَلُوا عَلَى الْإِسْلَامِ عِنْدَكَ إِنَّهُ	نَسَبٌ يَعْمُ الْمُسْلِمِينَ وَيُشْمَلُ
مَا لِلدِّيَارِ تَهْزُهَا نَشْوَاتُهَا	أَهَى الْأَنَاشِيدِ الْحَسَنِ تَرْتَّلُ

رَفَّتْ نَضَارَتَهَا وَطَابَ أَرْجَحُهَا وَتَرَدَّدَتْ أَنْفَاسُهَا تَتَسَلَّلُ
فَكَأَنَّمَا فِي كُلِّ مَغْنَى رَوْضَةٍ وَكَأَنَّمَا فِي كُلِّ دَارٍ بَلْبَلُ
هُنَّ الْعِزَارَى الْمُؤَمَّنَاتُ أَقْسَمْنَهُ عِيدًا تَحِيَّيُهُ الْمَلَائِكُ مِنْ عَلُ
فِي مَوْكَبٍ لِلَّهِ أَشْرَقَ نُورُهُ فِيهِ وَقَامَ جَلَالُهُ يَتِمَثَلُ
جَمْعَ النَّبِيِّينَ الْكَرَامَ فَاخْذُ بِيَدِ الْإِمَامِ وَعَائِذُ يَتَوَسَّلُ
يَمْشِي بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ مَسْلَمًا وَجَبِينَهُ بِفَهْمِ النَّبِيِّ مَقْبَلُ
وَانْطَلَقَ مُحْرَمٌ فِي هَذِهِ الْفَصْلِ يَتَحَدَّثُ عَنْ اسْتِقْبَالِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لِلرَّسُولِ ،
وَكَيْفَ كَانَ يُوَدِّعُ كُلَّ مَنْهُمْ صَادِقًا أَنْ يَحِطَ رَحَالُهُ عِنْدَهُ ، فَيُضْمِمْ هَذَا النُّورَ إِلَى
بَيْتِهِ وَصَدْرِهِ ، وَكَيْفَ تَلَطَّفَ الرَّسُولُ ، فَأَلْقَى حَبْلَ نَاقَتِهِ عَلَى غَارِبِهَا ، وَتَرَكَ لَهَا
أَنْ تَخْتَارَ هِيَ مَنَازِلَهَا ، حَتَّى لَا يَأْلُمَ أَحَدٌ مِنْ مَسْلُومِي الْمَدِينَةِ ، فَيُظَنُّ أَنَّ النَّبِيَّ
يُؤْثِرُ عَلَيْهِ أَخَاهُ ، وَمَا كَانَ يَعْرِفُ الْإِثَارَ بَيْنَ أَنْصَارِهِ وَأَصْحَابِهِ . وَمَا زَالَتْ
النَّاقَةُ تَسِيرُ ، وَيَسِيرُ الرِّكَبُ مِنْ خَلْفِهَا ، وَدَفُوفُ النِّسَاءِ تَضْرِبُ ، وَهُنَّ يَغْنَيْنَ
هَذِهِ الْأَغْنِيَةَ الْمَشْهُورَةَ : (طَلَعَ الْبَدْرُ عَلَيْنَا مِنْ ثَنِيَّاتِ الْوُدَاعِ) . وَتَوَقَّفَتِ النَّاقَةُ
وَتَوَقَّفَ الرِّكَبُ ، أَوْقَلَ : تَوَقَّفَ الْمَوْكَبُ السَّعِيدُ بِغَنَاءِ بَيْتِ أَبِي أَيُّوبَ
الْأَنْصَارِيِّ ، وَسَقَطَ الْبَدْرُ فِي حَجَرِهِ : فَيَا لِلْبُشْرَى وَيَا لِلْسَّعَادَةِ الْعَظِيمَةِ ،
وَهَنِيئًا لَهُ وَلِأَهْلِ بَيْتِهِ .

وَيُفِيضُ مُحْرَمٌ فِي ضِيَافَةِ الْأَنْصَارِ الْهَاهُجَرِينَ وَمَا بَدَّلُوهُ لَهُمْ ، فَقَدْ
شَاطَرُوهُمْ بِيُوتِهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ ، وَأَنْزَلُوهُمْ مِنْ نَفُوسِهِمْ مَنَازِلَ كَرِيمَةٍ . وَبَارَكْتَ يَدُ
الرَّسُولِ هَذِهِ الْأَخُوَّةَ الصَّادِقَةَ ، وَوَثَّقْتَ عُرَا تِلْكَ الْمَحَبَّةَ الصَّافِيَةَ فِي اللَّهِ وَدِينِهِ :

هِيَ الْأَوَاصِرُ أَدْنَاهَا الدَّمُ الْجَارِي فَلَا مَحَالَةَ مِنْ حُبٍّ وَإِثَارِ
الْأُسْرَةِ اجْتَمَعَتْ فِي الدَّارِ وَاحِدَةً حَيْثُ مِنْ أُسْرَةٍ بَوْرَكَتٍ مِنْ دَارِ
مَشَى بِهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ خَيْرُ أَبٍ يَدْعُو الْبَنِينَ فَلَبَّوْا غَيْرَ أَغْمَارِ
تَأْكَدُ الْعَهْدُ بِمَا ضَمَّ الْفَتْهُمَ وَاسْتَحْصَدَ الْحَبْلُ مِنْ شَدِّ وَإِمْرَارِ

كلُّ له من سرّاة المسلمين أخ يحمى الذمار ويرعى حرمة الجار
يطوف منه بحقّ ليس يمنعه وليس يعطيه إن أعطى بمقدار
يجود بالدم والآجال ذاهلةً ويبذل المال في سُسرٍ وإعسار
هم الجماعة إلا أنهم برزوا في صورة الفرد فانظر قدرة الباري
صاح النبي بهم : كونوا سواسيةً يا عصابة الله من صُحْبٍ وأنصار
هذا هو الدين لا ما هاج من فتن بين القبائل دينُ الجَهلِ والعار
ويعرض محرم للجاهلية وما آثمها ومظالمها ، وأن الرسول جاء يدعو بالحق
ودين الهدى . ثم يعتقد فصلاً يسلك فيه المنافقين مع اليهود ، ويذكر كيف
أن الآخرين نقضوا ما بينهم وبين الرسول من عهد ، ويؤسّع الطرفين جميعاً
قدحاً وثلباً لما نقموا من الله ورسوله .

ونحن لا نريد أن نسارع إلى الحكم على الإلياذة الإسلامية بهذه الأشعار
التي قدمناها ، لأنها قد تُعدّ تمهيداً لموضوعها الأساسي ، وهو وصف الكفاح
الذي عاناه الرسول وأصحابه وأنصاره في حرب المشركين ومن كفروا
بأنعم الله ، فشهِروا رماحهم وسلوا سيوفهم في وجهه ووجه رسوله .
ولم يقصّ محرم كل وقائع الرسول وغزواته ، فقد اختار أهمها من مثل
غزوة بدر الكبرى وغزوة أحد وبنى النضير ودوامة الجندل وبنى قريظة
والخندق ، تلك الغزوات التي يلمع وميضها في جبهة الإسلام ، ويتألق لآلؤها
في قلوب المسلمين . ويكفي أن نعرض من الإلياذة غزوة بدر الكبرى
أمّ تلك الغزوات جميعاً ، ليتضح لنا صوت محرم في شعره القصصى على أضواء
أتم وأكمل ، وهو يستهلها على هذا النمط :

ما للنفوس إلى العماية تجنحُ أتظن أن السيف عنها يصفحُ
داويت بالحسنى فليجّ فسادها ولديك إن شئت الدواء الأصالحُ

الاذنُ جاء فقل لقومك أقبلوا
أفيطمع الكفار أن لا يؤخذوا
أمنوا نكالك فاستبد طغاتهم
ظمئت سيوفك يا محمد فاستبقها
اليوم توردها الدماء فترتوى
المشركون عمووا أنت موكلٌ
خذهم بيأسك لا ترعك جموعهم
ضلوا السبيل وفي يمينك ساطعٌ
بالبیض تبرق والصوافن تضبَحُ
بل غرَّهم حلمٌ یُمد ویفسح
أفكنت إذ تزجي الزواجر تمدح
من خير ما تسقى السيوف وتنضح
وتردها نشوى المتون فتفرح
بالشرك یمحى والعایة تمسحُ
فلأنت إن وزنوا الكتاب أرجح
یهدى النفوس إلى التي هي أوضحُ

ثم يتحدث عن أبي سفيان بن حرب وكيف أن قومه بعثوه في تجارة إلى الشام ، فلما اقترب من المدينة خرج الرسول في طلبه ، وعلم أبو سفيان ، خائفاً قومه أن ينفروا لإنقاذه وإنقاذ تجارتهم أو قافلته ، فكانت هذه الموقعة التي سالت فيها دماء المشركين من قريش أعداء الله أنهارا . يقول محرم :

ذهب ابنٌ حربٌ في تجارة قومه
نسرٌ مضى متصيذاً ووراءه
بيننا يحيد عن السهام أصابه
بعث ابن عمرو : مالكم من قوة
واها قريشٌ إنه الدم فاعلموا
إني صدقتكم البلاغ لتعلموا
جفلت نفوس القوم حتى مالها
نفروا يريدون القتال وغرَّهم
غنت بهجو المسلمين وإنها
الضاربات على الدفوف فإن هم
ولسوف يعلم من يفوز ويرجُ
يوم تُصاد به النسور وتذبحُ
نبأ تصاب به السهام فتجرح
إن مالكم أمسى يكلم ويكسح
من دون بيضكم يراق ويسفح
وجبال مكة شهده والأبطح
لجم ترد ولا مقاود تكبح
عبث اللواتي في الهوارج تنبح
لأضل من يهجو الرجال ويمدح
ضربوا الطلئ فالنادبات النوحُ

وهو يشير بالضاربات اللواتي في الهوارج إلى فرقة النسوة الغازيات اللاتي

كن يصحب جيش قريش ، يَصْحَنُ في الرجال ويحمسهم ويبعثهم على القتال .
ولهن أغاني تذكرها كتب الأدب والتاريخ .

ويتقدم محرم فيصف حشد الرسول لجيشه وما أعده لو ثني مكة
من سيوف الله المسلوطة ، مثل مصعب بن عمير صاحب اللواء ، وسعد
ابن أبي وقاص : والمقداد ، وعلى بن أبي طالب ، ويصور احتدام الموقعة
واشتداد أوارها ، وكيف كان قلب الرسول معلقاً بأصحابه وأنصاره ، وهم من
حوله ، وعلى رأسهم أبو بكر صفيه وخليفه ، يذودون عن عريشه وكرسيه :

جدَّ البلاء وهبَّ إعصار الردى يرمي بأبطال الوغى ويطوحُ
نظر النبي فضجَّ يدعو ربه لا هُمَّ نصرك إنا لك نكاح
تلك العصابة ما لديك غيرها إن شدَّ عادٍ أو أغار مجلح
لا هُمَّ إن تهلك فمالك عابدٌ يغدو على الغبراء أو يتروَّح

ومحرم يشير بذلك إلى ما يروى عن الرسول ، من أنه كان يدعو ربه في هذه
المعركة قائلاً في بعض دعائه : اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد في
الأرض أبداً . ونرى الشاعر يحشد أسماء بعض الأبطال الذين خاضوا
الواقعة ، ثم يصف كيف استجاب الله لرسوله ، فأنزل عليه من السماء كتيبة
من الملائكة الأطهار ، كانت تضرب مع المؤمنين فوق أعناق الكفار ، وعلى
كل بنان :

الله أرسل في السحاب كتيبةً تهفو كما هفت البروق اللمَّحُ
جبريل يضرب والملائك حوله صف ترضُّ به الصفوف وترضح
للقوم في أعناقهم وبنانهم نارٌ تريك الداء كيف يبرِّح

ولم يلبث المشركون أن ولَّوا الأدبار ، وهم ينادون بالويل والثبور ، فقد
قطعت رؤوسهم ، ومزقت أجسادهم ، ولم يبق بينهم بطل أو شجاع إلا سفكت
دمه الرماح ، ونهشت لحمة السيوف :

أودى بعتبة والوليد وشيبة وأمية القدر الذي لا يدرك
وهوى أبوجهل ونوفل وأرعوى بعد اللجاج الفاحش المتوقع
فهؤلاء أشراف مكة : أبو جهل وعتبة وابنه الوليد وشيبة بن ربيعة وأمية
ابن خلف ونوفل بن خويلد ، كل هؤلاء ذاقوا عاقبة كفرهم وعنادهم ،
وردّ كيدهم إلى نحورهم . أما المسلمون فأعزهم الله وأعز رسوله وأيده بنصر
من عنده . ويحدثنا محرم عن صدى الواقعة في مكة فيقول :

ما أكره الباكين ملء جفونهم للجمع بالبيض البواتر يصدّغ
جز النساء شعورهن وغودرت للحنن منهن الدموع الهُمّع
رجعن مكروه العويل على أسي والبيت يشدو والحطيم يرجع
والمسلمون بنعمة من ربهم فيها لكل موحد مستمتع
الله أكبر لا مرَدَّ لحكمه هو ربنا وإليه منا المَرَجع

وبذلك تنتهى هذه الغزوة فى الإلياذة ، وتعقبها الغزوات الأخرى فى
هذه الصورة من الشعر الذى يسجل الغزوة وأهم حوادثها وأبرز أبطالها
وأشهر مواقفها .

٣

وأكبر الظن أنه قد اتضح لنا الآن صوت محرم فى هذه الإلياذة بكل
سماته وخصائصه ، فهو لا يكتب ملحمة كالملاحمة التى كتب فيها هوميروس
إلياذته ، وإنما يكتب أو قل ينظم سيرة الرسول . وفرق بين نظم السير
والشعر القصصى ، ذلك لأن الأول عمل آلى ، فالشاعر يقرأ التاريخ ثم يحوله
شعرا ، أو قل يحوله نظما ، وهو لذلك لا يعالج حربا ولا ملحمة بعينها ، وإنما
يعالج سيرة مطولة فيها الحرب وفيها غير الحرب .

ثم نفس هذه الإلياذة الإسلامية كما سماها محرم لا تتناول حربا واحدة

من حروب الرسول ، وإنما تتناول مجموعة كبيرة من حروبه ، وهي تقف عند كل حرب فتعرضها علينا عرضا تاريخيا صادقا ما أمكن . فيكون تاريخ ولكن لا يكون شعر ، ولا يكون شاعر له انطلاقاته الواسعة . ومن أين يكون الشاعر وهو قد حدد نفسه بحقائق التاريخ يحصيها في إيجاز بالغ ، حتى لكأنه يؤلف متنا من متون التاريخ ، فلا شرح ولا حاشية من خيال وحلم يمثل لنا مشاهد الموقعة ، وكأنها تبعث من جديد بتفاصيلها ، إنما هي المشاهد نفسها تصاغ من جديد نظما .

ولا يُطلب من الشاعر القصصى أن يشوه التاريخ أو يحرفه ، ولكن يُطلب منه أن يمثل حقائقه لا كما هي في الواقع بالضبط ، ولكن كما تبدو في خياله وفي خبراته ، فإذا سار على الصراط التاريخي ، ولم ينحرف يمينا ولا شمالا فإنه حتما يسقط دون غايته .

وهل يمكن أن نعد ما قرأناه محرم الإيالة أو شعرا قصصيا ، إنما هو قصائد جمع بعضها إلى بعض وسميت إيالة ، ولن يغير الاسم من مدلولها الحقيقي شيئا ، فهو اسم لا يطابق مسماه ، لا من حيث الشكل ولا من حيث الموضوع . أما من حيث الشكل فإن الشاعر لم يقترح على نفسه وزنا معين ينظم فيه إيالته ، بل ظن البحور كلها ملكا له ، يتنقل بينها كيف يشاء .

وهذا هو مبرور لم ينظم الآلاف المؤلفة من إيالته في حرب طروادة كلها التي ظلت عشر سنوات طوالا ، وإنما نظمها في حوادث سنتها الأخيرة ، وأفسح لخياله في العسود والانطلاق ، فإذا هو يعطينا هذا العمل الخالد ، ولست أقصد الحقيقة التاريخية كما هي ، وإنما أقصد حقيقة فنه التي لا تنحرف بالتاريخ ولا تختلف معه ، ومع ذلك فهي أروع منه ومن حقائقه الجافة .

وهل من شك في أن إيالة محرم جافة جفافا شديدا ، وأنه لم يستطع أن يدخل على التاريخ المرقم في سيرة الرسول الزكية وجمالا ؟ إنها لا تزال

كما هي في كتب السيرة ، لولا أن خصائصه كشاعر غنائى تظهر من حين إلى حين ، ولكن الكثرة يظل فيها التاريخ ، ويظل الإحصاء ، وتظل الأرقام ، يظل كل ذلك كما هو بدون أى تعديل أو اختلاف .

وهناك أدلة كثيرة على أن محرما لم تكن له موهبة الشاعر القصصى لا من حيث إنه جمع سيرة الرسول عليه السلام كلها في مجموعة من القصائد الجافة ، وإنما أيضا من حيث إنه لم يستغل الفرص التي واثته في هذه السيرة ، ليلعب خياله وينشط ذهنه . ومن الفرص الذهبية التي ضيعها فرصة الإسراء والمعراج ، وقد أكثر المسلمون من الكتابة فيهما والقصص حولها شعرا ونثرا . ومعنى ذلك أنهما كنزان عظيمان لصنع مادة قصصية ضخمة ، ولم يحاول شاعرنا أن يحتكر لنفسه شيئا من هذه المادة .

وحق الفرص الكبيرة التي ألم بها في إلياذته أدجها إدماجا في شعره ، ولم يستطع أن يستخلص منها شيئا لنفسه وخلياله ، ومن هذه الفرص القيمة كتيبة الملائكة التي نزلت في غزوة بدر ، وحاربت في صفوف المسلمين . وهو حقا ذكرها في ثلاثة أبيات ! وكان يستطيع أن يضيف إليها كتيبة إبليس وجنوده من الشياطين . ومثل هذه المعركة كان يستحق قصيدة طويلة بل إلياذة كإلياذة هوميروس التي كانت تحارب فيها الآلهة منتصرة مرة لليونانيين ومرة للطرواديين ، غير أن خيال محرم لم يكن مؤهلا بحال لسكى ينظم شعرا قصصيا أو يكتب إلياذة .

وحق سيرة الرسول لم يدرسها دراسة منظمة ، ولذلك تظل السيرة في الكتب والأشعار القديمة أروع من شعره . ونفس هذه القصائد التي صاغها حول غزوات الرسول ومعاركه ليست شيئا جديدا ، فليس هو أبأ عُذرتها ، ولا هو فاتح بابها ، فالسيرة النبوية منذ أملاها ابن إسحاق تسكتظ بالشعر الذي نُظم في وقائع الرسول وحروبه ، نظم حسان وغير حسان ، ولو أن باحثا

جمع لنا هذا الشعر مرتباً حسب التاريخ لاستوت لنا منه إلیاذة أجمل وأبدع من إلیاذة محرم ، لأصاله شعرها واتصاله المباشر بالحوادث ، مما يجعله ينبض بالحیویة الدافقة .

والخلاصة أن إلیاذة محرم لیست ، كما یظن ، حدثاً جدیداً فی أدبنا ، بل هی عمل مسبوق ، وإن من الخطأ أن نسمیها أو یسمیها صاحبها إلیاذة ، وإنما هی مجموعة من القصائد فی سیرة الرسول وغزواته . وهی أشبه ما تكون بالقصائد الغنائیة ، ومع ذلك فغنائیتها ضعیفة ، إذ لیس فیها مشاعر مثیرة ، ولا صور حیه ناضرة ، فلا تقرؤها حتی تحس أنها زاخرة بالفتور ، وسرعان ما یملؤك السأم والملل . وهی لذلك شیء بین الشعر الغنائی والشعر التعلیمی . الجاف ، الذی یسرد علیك مجموعة من المعارف فی أعداد وأرقام ، أما الشعر القصصی فلیس فیها منه شیء ، لأنها تفقد أهم أركانها وهو الخیال القوی النافذ ، الذی یقص علیك الأسطورة أو الحادثة التاریخیة ، فیجعلك تستشعرها وتلبسها بكل تفاصيلها وجزئیاتها لمسا قویا ، حتی لكانها تتحفر فی ذهنك حفرًا .